المحاضرة الثالثة:

موضوعات الأدب الصوفي الجزائري:

توطئة:

عند إلقاء نظرة متفحصة على النتاج الأدبي الصوفي عامة والشعري على وجه الخصوص – والذي يعبر حقيقة عن تلك التجربة الصوفية التي عانى وعايشها الصوفي – فإنه يظهر لنا جملة من موضوعات عدة وكثيرة، ونجدها بصور مختلفة لدى جميع الشعراء المتصوفة سواء في المشرق أو في المغرب العربي، والجزائر قطعة جغرافية وتاريخية وحضارية تشكل ارتباطا وثيقا بمن يجاورها ويشترك معها في اللغة والتاريخ والتراث، فالشعر الصوفي الجزائري كما يقول عبد الله ركيبي هو " جزء من هذا التراث الصوفي العريض، فلابد أن يتأثر بما فيه من أفكار و أساليب ... أيضا بمصطلحاته و بصوره وبموضوعاته و برموزه.".

وقد عمل أدباء المتصوفة على خلق نموذج فني تتسم به تجربتهم الصوفية الإبداعية، وذلك من الجانب الشكلي التشكيلي، وجانب الأدوات الفنية والأسلوبية، فأبدعوا " شكلا للقصيدة الصوفية متميزا عن مثيله في القصيدة التقليدية، يخضع في بنائه للتجربة الصوفية العملية المتميزة في الثقافة العربية الإسلامية" حيث ثمة إجماع نقدي أن هذا الهيكل الذي تميزت به قصيدة التصوف يقوم أساسا على التغزل بالذات الإلهية، ذلك أن " موضوعة الحب الإلهي هي أساس الخطاب الشعري الصوفي، وبؤرته الدالة فيه، وليست باقي الموضوعات إلا أجزاء منها تدور في فلكها "[1]، وتحت ظل الحب الإلهي تنكشف موضوعات الشعر الصوفي، وإن تفاوتت في المصادر والمراجع من حيث الغياب والحضور؛ حيث يحددها البعض في (الحب الإلهي، الخمر، والفناء)، ويقول آخر ب(الحب الإلهي، والخمر الصوفي، والأفكار الفلسفية) ووردت في مصدر آخر مصنفة كما يلي (الحب الإلهي، الرحلة، الطلل والحنين؛ والخمر)، ما يهمنا أن هذه المضامين والموضوعات نبعت من صميم التجربة الصوفية، وخير ما يعبر عنها

سنستعرض في هذه الورقة البحثية أهم موضوعات التصوف في الشعر الجزائري القديم، مبينين تجلياتها وخصائصها وأثرها في الحركة الصوفية الجزائرية، وسنبدأ بعمود هذه الموضوعات: الحب الإلهي:

أولا/ الحب الإلهي في الشعر الصوفي الجزائري القديم:

تجلياته وخصائصه:

يفهم درويش الجندي في كتابه (الرمزية في الأدب العربي) بأنّ غاية الحياة الصوفية أنها " شوق الروح إلى الله، إنه الحب الإلهي، إنه الحب المطلق المجرد من النفعية "، فالحب الإلهي "جوهر التجربة الصوفية... وهو وسيلة من وسائل الصوفية للتعبير عن أحوالهم، ومواجيدهم، فالتصوف غايته المحبة، ووسيلته المحبة، وصاحب الحال عندما يأخذ في التدرج في المقامات يشعر بأن محبة الله تفيض عليه، وكلما ازداد علوا كلما ازداد حبا الله " ، وعليه فمحور الحياة الصوفية هو الحب، وركيزة الشعر الصوفي هي الحب.

والشاعر الصوفي الجزائري مثله مثل الشاعر المشرقي والأندلسي قد هام في عشق الذات الإلهية وعبر عن حب خارق مثير، فترك لنا تراثا شعريا ضخما محاطا بالرمزية التي زادته جمالا وعذوبة، سنستعرض بعض هذه التجليات في هذه الأسطر مع تقديم قراءات فنية لبعض النماذج المختارة.

بداية نذكر أن الشاعر الصوفي قد استعار واتخذ عدة مصادر فنية وشكلية لخلق وإبداع تجربته الصوفية، فنجده قد أخذ من فنون القول الشعري العربي القديم في موضوعاته وأغراضه، فمثلا في موضوعة الحب الإلهي فقد اتخذ من الغزل – الذي يعد غرضا شعريا بح ذاته – قلنا اتخذه وسيلة للتعبير عن حبه للذات الإلهية...

وعليه فإن كان أساس التجربة الصوفية هو حب الله تعالى، فإن التعبير عن هذا الحب تم باستخدام ألفاظ مستعارة من المعجم الغزلي وهو أساس الشعر الصوفي، وهذا رمزا لا تصريحا، حيث يتبادر للأذهان والأفهام أنه غزل بمحبوبة من الحبيبات.. تصريحا، لكن الشاعر الصوفي يتدارك هذا الفهم بتلميح أو تلويح أو إشارة وعبارة بأن حبه وتغزله بالذات الإلهية.

وفي هذا يقول أبو مدين شعيب:

فَـــاح النَّـــدي بِمنطقـــي فَتَنَـــازعوا ... أَبِإِســـــحلٍ أســـــتَاك أم بِـــــآراك

هيهـــاتَ عهـــدي بالســـواك و إنَّمـــا ... شَـــفَةُ الحبِيـــبِ جعلْتُهـــا ســـواكي

و يظُـــن مـــن ســـمع الحـــديثَ ... بِأَنَّـــه حـــقٌّ حـــلاَ ومـــدبر الأفْـــلاَك

رؤْيـــا رأَيـــتُ و إن مـــن أحببتـــه ... لمنـــــزه عـــــن مهنَـــــة الإدراك

فالغزل يبدو صريحا في الأبيات الثلاثة الأولى، لكن سرعان ما يربط هذه الصورة بالخالق المنزه عن الإدراك، في البيت الأخير، فهي صورة للعشق الإلهي الذي يعبر عنه الشاعر رمزا.

ومن الشعراء الصوفيين الجزائريين الذين عبروا بعمق عن الحب الإلهي، الصوفي "عفيف الدين التلمساني أبي ربيع"، ومما قال في هذا الغرض:

لاَ تَلُـم صـبوتي فمـن حـب يصـبو إنّمـا يـرحم المحـب المحـب

كَيـف لا يوقـد النسـيم غرامـي، ولـه فـي خيـام ليلـى مهـب ؟

مـا اعتـذاري إذا خَبـتْ لـي نـار، وحبيمـي أنـواره لّـيس تخْبـوا ؟

هـذه الحلـة التـي حـلّ فيهـا عقْـد صـبري و حلهـا لـي حـب

مـلأَ الكـون حسـنُه فلهـذا كـل صـب إلـى معانيـة يصـبو

فالمتأمل فيما جاء في هذه الأبيات يقف على جملة من مصطلحات الصوفية المتعلقة بالغزل الصوفي (من تجلي الأنوار الإلهية، الحب، إلى الحلول، ثم الكون، فالحسن... الخ، وهي تبرز صورة من صور التغزل بالذات الإلهية، فهذا الشاعر كما يقول عبد الحميد هيمة " من الشعراء الذين ارتقوا بالشعر الصوفي وحققوا له الكثير من النضج (...) وديوانه الشعري دليل على ذلك خاصة في موضوع الحب الإلهي الذي هو باعث التجلي وباعث اندفاع الخيال، وابتكار الصور "، من ذلك قوله أيضا:

أحِـب حبِيبـاً لاَ أُسـميهِ هيبـةً وكَـتم الهـوى لِلقَلْـبِ أَنكَـى وأَنكَـأُ

أَخـاف علَيـهِ مِـن هـواي فَكَيـف أَغَـار علَيـهِ مِـن سِـواي وأَبـرأ

ونجد كذلك عبد الرحمان الثعالبي متغزلا بالذات الإلهية بجمالها وجلالها، قائلا:

فَيـا ذَا الجـلاَلِ، و يـا ذَا الجمـالِ و يـا ذَا المعـالِي، عليـك اتّكـالِي

فَكُـن عنْـد ظَنَّـي، و لا تَسـلمني ولا تَخْـذُلْني بِسـوء فعـالي

فَأَنْـتَ الرجـاء، و منَّـا الجِفَـاء ومنْـك العطَـاء فهـب لـي سـؤَالِي

إنها مناجاة للذات الإلهية، ممزوجة بعبارات الحب والجمال، فهو ذلك المحب المتوسل المنكسر أمام ذي الجمال والجلال.

وفي الحب الإلهي، نجد أيضا: عبد الحق بن ربيع الأنصاري، يصف حاله مع المحبوب في أبيات غاية في العمق والجمال، فيقول:

سـفَرتْ علَـى وجـه الجميـلِ فَأَسـفَرا وبـدا هـلاَلُ الحسـنِ منْهـا مقْمـرا

ودنَـــتْ فكَاشَـــفَت القلـــوب بِســـرها و ســـقَتْ شَـــراب الأنْـــسِ منْهـــا كـــوثرا

إلى أن يقول:

إفْصـــاح قَـــولِي لا يفـــي بِمواجِـــدي و بيانُـــه لا يســـتَقلُّ بِمـــا جـــرى

لَـــو كـــان ســـر الله يكشَـــفُ لْـــم يكُـــن ســـرا و لَكـــن لَـــم يكُـــن ليـــذكرا

في هذه الأبيات، تعبير عن الحب الذات الإلهية (سفرت، دنت..)، فرغم الإبهام والإيهام الذي يعتريها يكشف المعجم الصوفي نزعة وصوت صوفي ينطلق خافتا ليشع وينكشف؛ إذاً (سفرت – الحسن – مقمرا –كاشفت – سرها – سقت – شراب – أنس) كلها من مصطلحات الصوفية المعروفة التي تعبر عن التغزل بالذات الإلهية.

لقد التمس الصوفيون الجزائريون ألفاظهم وعباراتهم عن حبهم الإلهي من معجم الشعر الغزلي أو الخمري، مّما خلّفه المحبون العذريون والشعراء الخمريون، وقد أدى العجز عن فهم الرموز الغزلية والخمرية إلى التشنيع على المتصوفة، والغضّ من القيم الروحية التي تنطوي عليها وتفسرها بمعانٍ مادية دنيويّة، الأمر الذي عرضهم لسوء الفهم سواء من المستشرقين أو من رجال الدين اتهموا الصوفية بالفُسق والإباحة والكفر والزندقة.

المصادر والمراجع (الإحالات):